الفصل الرابع

منتخبات من آثار رفاعة الطهطاوى

١ ــ رفاعة الناثر

١ ــ وطنياته

ا ــ حب الوطن (مصر)

كان رفاعة الرائد الأول فى هذا الميدان ، فهو أول من كتب – نثراً وشعراً – فى معنى الوطن والوطنية وحب الوطن فى العصر الحديث ، وأفكاره التى تدور حول هذه الموضوعات ، والتى تنادى بالاعتداد بوطنه مصر والإشادة بأمجاده تجدها منتثرة فى فصول كتبه المؤلفة والمترجمة ، وفى مقالاته الصحفية فى « الوقائع الرسمية » و « روضة المدارس » ، وفى مقطوعاته الشعرية المختلفة .

إرادةُ التمدّن للوطن لا تنشأ إلا عن حبّه من أهل القِطَن ، كما رَغَّبَ فيه الشَّارع[1] ، ففى الحديث : « حبُّ الوطن من الإيمان » ؛ وقال أميرُ المؤمنين عُمَرُ بن الخطّاب — رضِيَ الله عنه — : « عَمَّرَ اللهُ البلادَ بحبِّ الأوطان » ؛ وقال علىٌّ — كرَّم الله وجهَه — : « سعادةُ المرءِ أن يكونَ رزقُه فى بلدِه » ؛ وقال بعضُ الحكماء : « لولا حبُّ الوطن لما عُمِّرت البلادُ غيرُ المخصبة » ؛ وقال الأصمعىّ : « دخلتُ البادية ، فنزلتُ على بعضِ الأعراب ، فقلتُ له : أفِدْنى ، فقال : إذا أردتَ أن تعرفَ وفاءَ الرّجل ، وحُسنَ عهده ، ومكارمَ أخلاقِه ، وطهارةَ مولدِه ، فانظُرْ إلى حنينِه لأوطانه ، وشَوقِه إلى إخوانِه » ، قال الشاعر :

---

(١) الشارع : واضع الشريعة .

وحَبَّبَ أوطانَ الرِّجال إليهمُ مآربُ[1] قَضَّاها الشَّبابُ هنالكا
إذا ذُكِرَتْ أوطانَهُمْ ذكرتْ لهمْ عهودُ الصِّبا فِيها ، فحنُّوا لذٰلِكا
ولى موطِنٌ آلَيْتُ أنِّى أعزُّهُ وأن لا أرَى غيرِى له الدَّهْرَ مالِكا

وقال آخر :

بلدٌ صحبتُ به الشَّبيبةَ والصِّبا ولبستُ ثوبَ العيشِ وهو جديدُ
فإذا تمثَّلُ فى الضَّميرِ رأيتُهُ وعليه أغصانُ الشَّبابِ تَميدُ[2]

فالوطنُ محبُوبٌ ، وَالمنشأ مألوفٌ ، حتَّى لغير المتمدِّن ، بل يقال : إنَّ البادى[3] الجبلىّ متعلِّق بحبالِ جبالِ أوطانه ، ويعلقُ بأذيالِ باديتِهِ ، ولا يعلقُ الحاضر بمدينتِه وحاضرتِه ، بحيث لا ينتقِل الجلْف[4] من باديتِهِ إلاّ للانتجاع فى الفلَوات ، ويرى عزَّهُ فى الصحارى التى ألف طبعُه سُكْنى خيامِها ، وتربَّض عقلُه عليها واعتاد ، كما يدُلُّ لذلك ما حُكى عن مَيْسُون بنتِ بَحْدَل : أنها لما اتَّصلت بمعاوية رضى الله عنه . ونقلها من البدوِ إلى الشام كانت تُكْثِرُ الحنينَ إلى ناسِها ، والتذكّر بمسقطِ رأسِها ، فسمعها ذاتَ يومٍ وهى تنشد :

لَبَيْتٌ تخفقُ الأرواحُ فيه أَحَبُّ إلىَّ من قصرٍ مُنيفِ[5]
وأكلُ كُسَيْرَةٍ من كِسْرِ بيتى أَحَبُّ إلىَّ من أكلِ الرَّغيفِ

---

(١) مآرب : جمع مأرب ، الحاجة .
(٢) تميد : تميل .
(٣) البادى : ساكن البادية أى الصحراء .
(٤) الجلف – والجمع أجلاف – : الأعرابى الجافى فى خلقه وخلقه ، سمى كذلك لأن جوفه هواء لا عقل فيه .
(٥) أناف الشىء على غيره ارتفع وأشرف ، ويقال لكل مشرف على غيره إنه لمنيف .

وأصواتُ الرِّياحِ بكل فجٍّ أحَبُّ إليَّ من نَقْرِ الدُّفوفِ
ولُبْسُ عباءةٍ وتقرَّ عيني أحَبُّ إليَّ من لُبْسِ الشُّفوفِ[1]
وكلبٌ ينبحُ الطرّاقَ حولي أحَب إليَّ من قِطٍّ ألوفِ
وبِكْرٌ[2] يتبعُ الأظعانَ[3] صعبٌ أحَبُّ إليَّ من بغلٍ زفُوفِ[4]
وخِرْقٌ[5] من بنى عَمِّى نحيفٌ أحَبُّ إليَّ من عِلْجٍ[6] عَنِيفِ

فلمَّا سمع معاوية الأبيات قال : مارضيتْ ابنةُ بحْدَل حتى جعلتني علجاً من علوج العجم » .

فالعربيُّ كثيرُ التعلق ببادیته ، فلا يتمدّح إلا بها ، بخلاف المتمدِّن فإنه يكثر التنقُّل ، ولـكن فى الحقيقة تنقُّلُه ثمرةٌ من ثمرات التمدُّن مرتفعة ، تعودُ على الوطن بالمنفعة .

ويكفى حبَّ الوطن أن كراهةَ الإجلاء منه مقرونةٌ بكراهة قتل الإنسان نفسه فى قوله تعالى: « ولَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أوْ اخْرُجُوا من دِيارِكُمْ ما فَعَلُوه[7] »

وحَسْبُ المؤمنِ بحبِّ الوطن أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين خرج من مكة علا مطيَّتَه ، واستقبل الـكعبَةَ ، وقال :« والله ، لأعلمُ أنك أحبُّ بلدِ

---

(١) الشَّف والشِّف : الثوب الرقيق يرى ما وراءه ، والجمع شفوف .
(٢) البكر : ولد الناقة أو الفتى من الإبل .
(٣) الظعينة : الجمل الذى يركب أو الراحلة التى يرحل عليها والجمع أظعان .
(٤) الزفيف : سرعة المشى مع تقارب خطو وسكون .
(٥) الخرق من الفتيان : الظريف فى سماحة ونجدة ، وقيل هو الكريم السخى .
(٦) العلج : الرجل الضخم من كفار العجم ، وبعض العرب يطلق العلج على الكافر مطلقاً .
(٧) الآية ٦٦ (م) ، السورة ٤ (النساء) .

الله إليّ ، وأنك أحبُّ أرضِ الله إلى الله تعالى — عزَّ وجلَّ — وأنكِ خيرُ بقعةٍ على وجه الأرض وأحبُّها إلى الله تعالى ، ولولا أن أهلَك أخرجونى منك لما خرجتُ » .

وبالجملة فحبُّ الأوطان — على عِظَمِ الحسَبِ وكرمِ الأدب — أبهَى عنوان، وهو فضيلةٌ جليلة ، لا يؤدَّى حقّ الوفاء بها إلا من حازَ الشمائل النبيلة ، ولا تعين عليها إلا الهممُ العَلِيَّة والعزائم الملوكية ، التى تقلِّدُ أعناق الأمّة حلى المنّةِ والنِّعمة ، فتبعثُهم على التشبُّثِ بالأوطان ، والتعلّق بأذيالِ الإخوان ، لا سيّما إذا كان الموطنُ منبتَ العزِّ والسعادة والفخار والمجد كديارِ مصر ، فهى أعزُّ الأوطان لبنيها ، ومستحقَّة لِبرِّها منهم بالسَّعْى لبلوغ أمانيها ، بتحسين الأخلاقِ والآداب ، من جهتين عظيمتين :

الأولى : أنَّها أمٌّ لساكنيها ، وبِرُّ الوالدين واجبٌ — عقلاً وشرعاً — على كل إنسان .

والثانية : أنّها ودودٌ بارَّةٌ بهم ، مثمرةٌ للخيراتِ ، منتجةٌ للمبرّات ، فبِرُّها يعودُ على أبنائها ثمرتُه ، وترجِعُ إليهم فائدتُه ، ويحسن الصّنيع بتضاعُفِ الفوائدِ العوائد أضعافاً مُضاعَفة ، وكلَّما تحسَّنت جهاتُ البرِّ من أهاليها حسنت أيضاً الثمراتُ لطالبيها ، فإذا كانت لا تُحرم من ثمرات مصر الأجانبُ ، فبالأحرى أن تتمتع بها الأقاربُ ؛ فى الأثر : «من أعْيَتْهُ المكاسبُ فعليه بمصر، وعليه بالجانب الغربى منها » .

ويروى أيضاً :

« قُسمت البَرَكةُ عشرةَ أجزاء ، تسعةٌ فى مصر ، وجزء فى الأمصار كلّها ، ولا يزالُ فى مصر بركةُ مافى الأرضين كلّها » .

وقال عبد الله بن عمر :

« أهلُ مِصرَ أكرَمُ الأعاجِم كلّها ، وأسمحُهم يداً ، وأفضلُهم عنصرًا ، وأقربُهم رَحِماً بالعرب عامّة ، وبقريش خاصة » .

يشيرُ بهذا إلى هاجر أم إسماعيل — عليه السلام — ، فإنها من قرية أمّ دينار أو قرية أمّ دنين [1] ، وكلاهما بمصر ، ويقال إنّها من بلدةٍ بقرب الفرما [2] ؛ وإلى مارية أُم إبراهيم ، فإنها من قريةٍ بصعيدها من إقليم الجيزة .

ويروى عن عمر — أمير المؤمنين رضى الله عنه — أنه سمع رسول الله — صلّى الله عليه وسلم — يقول : « إن الله — عزّ وجلّ — سيفتحُ عليكم بعدِى مصر ، فاستوصوا بقِبطِها خيراً ، فإن لهم منكم صهراً وذمّة » .

فمصرُ هى بلدُ العِلْم والحكمة من قديم الدّهر وحديثه ، ومنها خرج العلماء والحكماء الذين عمّروا ممالكَ الدنيا بتدبيرهم وحكمتِهم وفنونِهم وصنائعهم ، ولم تزلْ إلى الآن يسيرُ إليها طلبة العلم وأصحابُ الفهم من سائر الأقطار لتحصيل درجة

---

(١) أم دنين : قرية مصرية قديمة كانت تطل على النيل وتقوم حيث تقوم حديقة الأزبكية الآن فى مدينة القاهرة .

(٢) كانت الفرما إحدى ثغور مصر الحصينة الشمالية على البحر الأبيض المتوسط ، وكانت لها فى العصور الوسطى الإسلامية أهمية خاصة من الناحيتين الحربية والتجارية ، وفى سنة ٥٤٥ هـ نزل الفرنج بالفرما ونهبوها وأحرقوها ، وفى سنة ٥٥٩ أكمل حرقها الوزير الفاطمى شاور فلم تقم لها قائمة بعد ذلك ، وأطلالها الآن موجودة شرقى محطة الطينة على بعد ٢٥ كيلومتراً منها .

الكمال ، وكفاها فخراً أنها تسمى خزائن الأرض » كما حكاه الله تعالى عن يوسف — عليه السلام — فى قوله لملِكِ مصر : « اجْعَلنى على خَزَائن الأرْض إنِّى حَفِيظٌ عَليم »[1] .

وممَّا يدُلُّ أيضاً على أنها كانت بمكانة من التمدين فى قديم الأزمان قوله تعالى مخبراً عن موسى — عليه السلام — أنه قال : « رَبَّنَا إنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَونَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فى الحيَاةِ الدُّنيا »[2]؛ وكذا قوله تعالى مخبراً عن فرعون أنه قال: «أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وهٰذهِ الأنهار تجرى مِنْ تحتى أَفَلاَ تُبْصِرُون[3]».

قال بعض المفسرين ، ولم يكن فى الأرض مُلْكٌ أعظمَ من مُلْك مصر ، وكان جميع الأرضين يحتاجون إلى مصر ، وأما الأنهار فكانت قناطرَ وجسوراً بتقدير وتدبير حتى أن الماء يجرى من تحت منازلها وأفنيتها فيحبسونه كيف شاءوا .

وهذا عينُ التمدُّن إذ لا يكون ذلك إلا بتقدّم الصنائع والفنون ، ويؤيده بقايا الآثار المشاهدة التى لا كان مثلها فى غير مصر ولا يكون ، مع ما امحَى منها بشهادة قوله تعالى : « ودَمَّرْنا ما كان يَصْنَعُ فِرْعَونُ وقوْمُهُ وما كانوا يَعْرِشُون »[4] .

وبالجملة فهى فُرْضَةٌ[5] ، يُحمل خيرُها إلى ما سِواها ، فيحمل منها عن طريق بحر القُلْزُم إلى الحرمين واليمن والهند والصين والسند و بلاد إفريقية ؛ ومن جهة

---

(١) الآية ٥٥ (ك) ، السورة ١٢ (يوسف) .
(٢) الآية ٨٨ (ك) ، السورة ١٠ (يونس) .
(٣) الآية ٥١ (ك) ، السورة ٤٣ (الزخرف) .
(٤) الآية ١٣٧ (ك) ، السورة ٧ (الأعراف) .
(٥) فرضة البحر : محط السفن ، فكأن معناها الثغر أو الميناء .

بحر الرُّوم إلى بلاد الروم والقسطنطينية والإفرنج وسواحل الشام والثغور إلى حدود العراق ، و إلى صقلية وكريد و بلاد المغرب ؛ ومن جهة الصَّعيد إلى بلاد الغرب والنوبة والسودان والحبشة والحجاز واليمن؛ ولا سيَّما الآن بوصل البحرين الأبيض والأحمر ، واتصال أفريقيا بآسيا على وجهٍ أظهر ، فبهذا يقرب النقل منها و إليها من سائر الأقطارِ المعمورة ، والمنظور أنها تصير بمنافع جميع ممالك الدنيا مغمورة ، وتكثر مخالطتُها مع جميع الأمم ، فلا غرو أن يأتي لها زمانٌ يصير فيه تمدّنها راسخَ القدَم ، فإن لطالعَ التمدن دوراً مخصوصاً من أدوار الجمعيّات التأنسية ، عند حضور الأوان تسطع أنوارُه على سائر الآفاق والبلدان .

فكل مملكةٍ تأخذُ حظَّها الأوفر من التمدّن مُدَّةَ قرونٍ وأزمان بحميَّة أهلها ومغالاتهم فى حبّ الأوطان، فقد شبَّهَ بعضُهم حبَّ الأوطان الحقيقى والغيرة عليها بحرارة جديدة محلية ، متمكنة من الأبدان الأهلية، متى حلَّت ببدن الإنسان غلبت على الحرارة الغريزية ، فلذلك إذا ظهرت الحميَّة الوطنيَّة فى أبناء الدِّيار المصرية ، وولعت بمنافع التمدنية ، فلا جرم أن تذكو نارُها وتغلب على القوَّة الأولية ، فيحصل لهذا الوطن من التمدن الحقيقى — المعنوى والمادى — كمال الأمنية ، فبقدح زنادِ الكدِّ والكدح ، والنهوض بالحركة والنقلة والإقدام على ركوب الأخطار ، تنال الأوطانُ بلوغَ الأوطار .

ب ـ حب الوطن الخصوصى (طهطا)

« إنَّ حُبَّ الوطنِ من الإيمان ، ومن طبع الأحرار إحرازُ الحنين إلى الأوطان ، ومولدُ الإنسانِ على الدوام محبُوب ، ومنشؤه مألوفٌ له ومرغوب ، ولأرضِكَ حرمةُ وطنِها ، كما لوالدتك حَقُّ لَبَنِها ، والكريمُ لا يجفو أرضاً بها قوابله و ولا ينسى داراً فيها قبائله ، فإنى و إن ألبستنى المحروسةُ (القاهرة) نِعَماً ، ورفعتْ لى بين أمثالى عَلَماً ، وكانت أمَّ الوطن العام ، وولية الآلاء والإنعام ، وأحبُّها حبًّا جمًّا ، لأنها وليَّةُ النعما ، وقضيتُ فيها الأربعين مجاوراً « كرام السَّجايا والبحور الطَّوامیا » ، فلا زلت أنشوقُ إلى وطنى الخصوصى وأتشوَّفُ ، وأتطلع إلى أخبارِه السَّارّة وأتعرَّفُ ، ولا أساوى بطهطا الخصبةِ سِواها ، فى القيامِ بالحقوقِ و إكرامِ مثواها .

منازِلُ ، لستُ أهوى غيرَها ، سُقيتِ حَيًا يعمُّ ، وخُصَّتْ بالتَّحيَّاتِ[1]

وأمنحُها — زمناً بعد زمن — الزِّيارة ، وأجدّد فيها من هباتِ الحكومة العمارة ؟ وأبذلُ فى محبَّتها النفس ، لتحصيلِ الأراضى للزرع والغرس ، وأفتخرُ بها كما افتخر عصامٌ بالنفسَ ، وأنشد قول الحافظ كمال الدين الأدفوى[2] :

أحنُّ إلى أرضِ الصَّعيدِ وأهلِهِ ويزدادُ وَجْدى حين تبدُو قِبابُها
وتذكُرُها فى ظُلْمةِ الليل مُهْجتى فتجرِى دموعاً إذ يزيدُ التهابُها

---

(١) الحيا : المطر .

(٢) كمال الدين جعفر بن ثعلب الادفوى (٦٨٥ – ٧٤٨ هـ) أديب مؤرخ ، له كتب كثيرة ، أهمها : « الطالع السعيد ، الجامع لأسماء نجباء الصعيد » .

وما صَعُبَتْ يوماً علىّ مُلِمَّةٌ وشاهَدْتُها إلاّ وهانَتْ صِعابُها
بِلادٌ بها كانَ الشَّبابُ مُساعِدِى على نَيْل آمالٍ عَزيزٍ طِلابُها
مواطنُ أهْلِى ثمّ صَحْبِى وجِيرَتِى وأولُ أرْض مَسّ جلْدِى تُرابُها

٢ — آراؤه فى التربية والاجتماع

ا — تربية البنين والبنات

ينادى رفاعة فى هذا الفصل بما ينادى به اليوم علماء التربية المحدثون ، فهو يقول بضرورة تعليم الأولاد جميعاً فى مرحلة الطفولة الأولى الأشياء الضرورية الإجبارية ، وهى : القراءة والكتابة ، والحساب ، ومبادئ الأخلاق الفاضلة ، والدين ، والرياضة البدنية ، والتربية العسكرية ؛ ثم تراعى بعد هذا الاستعدادات والميول الفطرية ، فيوجه كل طالب إلى الدراسة التى تؤهله لها هذه الاستعدادات والميول ، وهو أخيراً ينادى — ولأول مرة فى تاريخ مصر الحديث — بضرورة تعليم البنت ، وإشراكها مع الولد — على الأقل — فى تعلم الأشياء الضرورية من قراءة وكتابة ودين وحساب .

إنّ توصيلَ الولد إلى الرُّتبةِ المطلوبة والدّرجةِ المرغوبة ، تتوقّف على حُسْن التّربية والتهذيب ، والتّعليم والتّأديب ، ولا يخفى أنّ اللهَ سبحانَه وتعالى شرّف الإنسانَ بمُضْغَتَيْن صغيرتيْن ، وهما : قلبُه ولسانُه ، وخصّه بصفتين عظيمتين ، وهما : همّتُه وإحسانُه ؛ وما عدا ذلك من مَحْض المال أو الجمال فإنما هو حظُّ الأدنياء من النِّساء والرِّجال ، فلا يرتفعُ المرء حتى يرفعه أكبراه وأصغراه ، فالجنان[1] قابلٌ واللسانُ قائلٌ ، والهمّة حاملة ، والإحسان فضيلة عاملة ، والجنان عارفٌ مُستقِرّ واللسان معترفٌ مُقِرّ ؛ والهمّة حركة منتشرة ، والإحسان بركة مبشّرة ؛ فإنّ الجنَان يُنشى ، واللسان يُفشى ، وكلاهما يساعدُ الهمّة والإحسان ، والعزم والإتقان

(١) الجنان : القلب .

ولذلك كان المرء بأصغريْه ، ومعلومٌ أنّ الولدَ الصغيرَ مستعدٌّ بأصغريْه إلى استكمالِ أكبريْه ، فيحتاجُ إلى التربيةِ التى هى صنعةُ المربِّى الذى يقيمه الوالِىُّ لتأديبِ الصبىّ فيما يُقصد منه .

فيجبُ على الوالىِّ أن يتأمّل فى حال الصّبىّ وما هو مستعدٌّ له من الأعمال ومتهيِّىءٌ له منها ، فيعلم أنه مخلوقٌ له ؛ فالحديثُ يقول : « اعملوا فكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلق له »، فلا يحمله على غيره ، فإنه إن حمَله على غير ما هو مستعدٌّ له لم يُفْلِحْ فيه عادةً ، فيفوتُه ما هو متهيّىء له .

فإذا رآه حَسَنَ الفهم ، صحيحَ الإدراك ، جيِّدَ الحفظ واعياً ، فهذا من علامةِ قبوله للعلوم والفنُون وتهيؤه لها ، فلينقشْها فى لوحِ قلبه ما دام خالياً ، فإنها تتمكّن من القلب ، وتستقرّ فيه ، وتزكو[1] معه ؛ وإن رآه بخلاف ذلك من كل وجه عَلِمَ أنه لم يُخْلَقْ لذلك .

فإن رأى عينَه طامحةً إلى صَنْعَةٍ من الصّنائع ، مستعدًّا لها ، قابلاً عليها ، وهى صناعةٌ مباحَة نافعة لأهل وطنه ، فليمكِّنه منها .

وهذا كله بعد تعليمه المعارف الابتدائية التى يشتركُ فيها كلُّ فَرْدٍ من أفراد الجمعيَّة التأنسية ، وهى : الكتابةُ والقراءة ، وما يحتاجُ إليه فى دينه من العقائد وغيرِها ، وأصول الحساب ، ونحو ذلك من السّباحة والعوْم ، والفروسيَّة وأسبابها : من ركوبِ الخيل ، والرَّمْى ، واللَّعِب بالرُّمح والسّيف ، وأشباه ذلك من آلاتِ الحرب ، ليتمرَّن على وسائل الدَّفْع عن وطنِه ، والحماماة عنه ؛ فإن

---

(١) تزكو : تنمو .

هذه الأشياء من المنافع العمومية التى ينبغى تمرين الأطفال فى زمن الشبو بيَّة عليها.

هذا بالنسبة للذكور ، وأما بالنّسبة للبنات ، فإنّ و لِىّ البنت يعلّمها ما يليقُ بها من القراءة ، وأمور الدين ، وكلّ ما يليق بالنِّساء من خياطة وتطريز ، و إن اقتضى حالُ البلاد تعليم النساء الكتابة و بعض مبادئ المعارف النافعة فى إدارة المنازل فلا بأسَ بتعليم الحساب وما أشبهه لهن ، و يشترك الصّبيان والبنات فى تعليم الأخلاق والآداب وحسن السلوك .

فبهذا كله يتيسّرُ للجميع كسب الفوائدِ الجسيمة المنتجة للاستقامة التامّة وغِنَى النفس، بما اكتسبه العقلُ من العلوم والمعارف ، ومارسَتْه الأيدى من الصّنائع واللّطائف التى هى أمنٌ من الفقر . . إلخ »[1] .

ب ــ المناداة بتعليم المرأة

كان رفاعة الطهطاوى رائداً فى هذا الميدان فقد سبق قاسم أمين فى المناداة بضرورة تعليم المرأة ، وعالج هذا الموضوع بإيجاز فى الفصل السابق ، ولكنه فى هذا الفصل يعالجه فى تفصيل واف ، ويسوق البراهين الكثيرة لتأييد رأيه .

ينبغى صَرْفُ الهمّةِ فى تعليم البنات والصّبيان معاً ، لحسْن معاشَرةِ الأزواج ، فتتعلّمُ البناتُ القراءةَ والكتابةَ والحسابَ ونحوَ ذلك ، فإنّ هذا ممّا يزيدُهن أدباً وعقلًا ، ويجعلهنّ بالمعارف أهلًا ، و يصلحن به لمشاركةِ الرِّجال فى الكلام والرّأى ، فيعظمن فى قلوبهم ، و يعظمُ مقامُهنّ ، لزوالِ ما فيهن من سَخافةِ العقل والطَّيْش ، ممّا ينتجُ من معاشرةِ المرأةِ الجاهلة لمرأةٍ مثلها ، وليمكن للمرأة

(١) « مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية » ص ٦٥ ــ ٦٦ .

عند اقتضاء الحال أن تتعاطَى من الأشغالِ والأعمال ما يتعاطاهُ الرِّجال ، على قَدْرِ قُوَّتها وطاقتها ، فكلُّ ما يطيقُه النساء من العمل يباشِرْنَهُ بأنفسهنّ ، وهذا من شأنه أن يُشْغِلَ النساءَ عن البطالة ، فإنّ فراغَ أيديهنّ عن العمل يُشغل ألسنتهنّ بالأباطيل وقلوبهن بالأهواء وافتعالِ الأقاويل ، فالعملُ يصونُ المرأةَ عمّا لا يليق ، ويُقرِّبُها من الفضيلة .

وإذا كانت البطالةُ مذمومةً فى حقِّ الرجال فهى مَذَمَّةٌ عظيمةٌ فى حَقِّ النساء ، فإنَّ المرأةَ التى لا عملَ لها تقضِى الزمن خائضةً فى حديثِ جيرانِها ، وفيما يأكلُون ويشربُون ، ويلبسون ويفرشون ، وفيما عندهم وعندَها ، وهكذا .

وأمّا القولُ بأنّه لاينبغى تعليمُ النساء الكتابةَ ، وأنّها مكروهةٌ فى حقِّهن ارتكاناً على النَّهىِ عن ذلك فى بعض الآثار ، فينبغى أن لا يكون ذلك على عمومِه ، ولا نَظَرَ إلى قَوْلِ من علَّل ذلك بأنَّ من طبعهنَّ المكرَ والدّهاء والمداهنة ، ولا يُعتمد على رأيهن لعَدَمِ كمالِ عقولهنّ ، فتعليمُ القراءة والكتابة ربما حملهن على الوسائلِ غيرِ المُرْضية ، ككتابة رسالةٍ إلى زيد ، ورقعةٍ إلى عمرو وبيتِ شِعْرٍ إلى خالد ، ونحو ذلك ، وأن الله تعالى لو شاء أن يخلقهنَّ كالرِّجال فى جَوْدَةِ العقلِ وصوابِ الرأى وحُبِّ الفضائل لَفَعَلَ ، فكان الله تعالى خلقهنَّ لِحفْظ مَتاعِ البيت ، ووعاء لصوْن مادة النسل .

فمثلُ هذه الأقوال لا تُفيد أنَّ جميعَ النِّساء على هذه الصِّفات الذَّميمة ، ولا تنطبقُ على جميع النساء ، وكم من نَهْىٍ وردتْ به الآثار ، كحُبِّ الدنيا ومقاربة السَّلاطين والملوك ، والتَّحذير من الغِنَى ، فقد حُمل على ما يعقبه شرٌّ وضررٌ محقَّق ، وتعليمُ البنات لا يتحقق ضررُه ؛ فكيف ذلك وقد كان من أزواجه

— صلى الله عليه وسلم — من يكتبُ ويقرأُ ، كحفصة بنت عمر ، وعائشة بنت أبى بكر — رضى الله عنهم — وغيرهما من نساء كل زمنٍ من الأزمان .

ولم يُعهد أنَّ عدداً كثيراً من النساء ابتذلنَ بسبب آدابهنَّ ومعارفهنَّ ، على أنَّ كثيراً من الرجال أضلَّهم التوغُّل فى المعارف ، وترتَّب على علومهم مالا يُحصى من شبهِ الخروج والاعتزال ؛ وليس مرجِعُ التَّشديد فى حِرْمان البنات من الكتابة إلاَّ التَّغالى فى الغَيْرَة عليهن من إبراز محمودِ صفاتهنَّ أيًّا ما كانت فى مَيْدان الرِّجال ، تبعاً للعوائد المحليّة المشوبة بجمعية أهلية .

ولو جُرِّب خلافُ هذه العادة لصَحَّت التجربة ، فإنَّنا لو فرضنا أن إنساناً أخذ بنتاً صغيرةَ السِّنِّ مميِّزة ، وعلَّمها القراءةَ والكتابةَ والحسابَ ، وبعضَ ما يليق بالبنات أن يتعلَّمنَه من الصَّنائع : كالخياطة ، والتطريز ، إلى أن تبلغ خمسةَ عشرَة سنة[1] ، ثم زوَّجها لإنسانٍ حسَنِ الأخلاق كاملِ التَّربية مثلها فلا يصحّ أنها لا تحسن العشرةَ معه ، أو لا تكون له أمينةً ، ومثل ذلك سائرُ البنات ، فإن تعليمهنَّ فى نفسِ الأمر عبارةٌ عن تنويرِ عقولهنَّ بمصباح المعارف المرشدِ لهنَّ ، فلا شكَّ أن حصولَ النِّساء على مَلَكَةِ القراءةِ والكتابة ، وعلى التخلُّقِ بالأخلاقِ الحميدة ، والاطلاع على المعارفِ المفيدة ، هو أجملُ صفاتِ الكمال ، وهو أشوقُ للرِّجال المتربِّين من الجمالِ ، فالأدبُ للمرأةِ يُغْنِي عن الجمال ، لكنَّ الجمالَ لا يُغْنِي عن الأدب ، لأنه عَرَضٌ زائل .

وأيضاً آدابُ المرأة ومعارفُها تؤثِّر كثيراً فى أخلاق أولادِها ، إذ البنتُ الصَّغيرةُ متى رأت أمَّها مُقْبِلَةً على مطالعةِ الكتب ، وضَبْطِ أمورِ البيت ،

(١) فى الأصل : « خمسة عشر » .

والاشتغالِ بتربية أولادِها جذبَتْها الغَيْرَةُ إلى أن تكون مِثْلَ أُمِّها ، بخلاف ما إذا رأتْ أُمَّها مقبلةً على مجرَّد الزِّينة والتبرُّج ، وإضاعةِ الوقت بهَذَرِ[1] الكلام ، والزياراتِ غير اللَّازِمَة ، حيث تتصوّر البنتُ من الصِّغَر أنّ جميعَ النساء كذلك ، فتألَفُ ذلك من صِغَرِها .

فشتَّانَ بين هذه و بين من تعتمدُ على معارفها وآدابِها ، وتفعَلُ ما فيه إرضاء بَعْلِها[2] وتربيةُ أولادِها ، لأنها شبَّت على ذلك ، كما قال البوصيرى[3] — رحمه الله — :

والنَّفْسُ كالطفْلِ إنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ عَلَى حُبِّ الرِّضاعِ ، وإنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ

وقد قضتْ التجربةُ فى كثيرٍ من البلاد أنّ نَفْعَ تعليمِ البناتِ أكثرُ من ضررِه ، بل إنه لا ضررَ فيه أصلاً . . . إلخ[4] .

---

(١) الهذر : الهذى والخلط والكلام بما لا ينبغى .

(٢) البعل : الزوج .

(٣) محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله الصنهاجى البوصيرى (٦٠٨ — ٦٩١ هـ) شاعر مصرى مجيد عاش فى القرن السابع الهجرى ، وله أشعار كثيرة أجملها ما قاله فى مدح النبى عليه السلام ، وأشهر قصائده فى هذا المعنى قصيدة البردة ، وقد نهج نهجها كثير من الشعراء بعده ، كان آخرهم أحمد شوقى .

(٤) « المرشد الأمين للبنات والبنين » ص ٦٦ — ٦٨

حـ – وجوب تعليم الأزهريين العلوم العصرية

تلقّى رفاعة علومه الأولى فى الأزهر ، ثم بعث إلى فرنسا فدرس العلوم المدنية الحديثة فى باريس ، وأدرك بهذا ما لهذين النوعين من الدراسات من فوائد ، وكان من الطلائع الذين نادوا بإصلاح الأزهر ووجوب إدخال العلوم العصرية فى مناهج الدراسة به .

. . . ومدارُ سلوكِ جادّة الرّشاد والإصابة مَنُوطٌ — بعد ولىّ الأمر — بهذه العصابة (يقصد شيوخ الأزهر وطلابه) التى ينبغى أن تضيفَ إلى مايجبُ عليها من نشر السنّة الشريفة ، ورفع أعلامِ الشريعة المنيفة ، معرفةَ سائر العلوم البشريّة المدنيّة ، التى لها مدخلٌ فى تقديمِ الوطنية ، من كل ما يُحمدُ على تعلّمه وتعليمه علماءِ الأمة المحمدية ، فإنه بانضمامِه إلى علوم الشّريعة والأحكام يكون من الأعمالِ الباقية على الدوام ، ويقتدِى بهم فى اتباعه الخاصُّ والعامُّ حتى إذا دخلوا فى أمورِ الدولة يحسن كل منهم فى إبداء المحاسن المدنيّة قولَه ، فإن سلوكَ طريقِ العلم النافع من حيث هو مستقيم ، ومنهجَه الأبْهَجَ هو القويم يكون بالنسبة للعلماء سلوكه أقوم ، ، وتلقّيه من أفواههم أتمّ وأنظم ، لا سيّا وأن هذه العلومَ الحكميةَ العمليةَ ، التى يظهرُ الآن أنها أجنبيّة ، هى علومٌ إسلامية ، نقلها الأجانبُ إلى لغاتهم من الكتب العربية ، ولم تزل كُتُبها إلى الآن فى خزائن ملوك الإسلام كالذّخيرة ، بل لا زالَ يتشبّث بقراءتها ودراستها من أهل أور با حكماء الأزمنة الأخيرة ، فإنّ من اطّلع على سَنَد شيخ الجامع الأزهر الشيخ أحمد الدمنهورى[1] رأى أنه قد أحاطَ من دوائر هذه العلوم

---

(١) هو الشيخ أحمد بن عبد المنعم بن يوسف بن صيام الدمنهورى ، ولد فى دمنهور سنة ١١٠١ هـ ، وولى مشيخة الأزهر سنة ١١٨٢ هـ ، ولبث فى المشيخة عشر سنوات إلى أن توفى سنة ١١٩٢ هـ . راجع (سليمان رصد « كنز الجوهر فى تاريخ الأزهر » ص ١٣٠ – ١٣١) .

بكثير ، وأن له فيها المؤلفات الجمّة ، وأن تلقّيها إلى أيامه كان عندَ أهل الجامع الأزهر من الأمور المهمة .

« . . . فلو تشبَّثت من الآن فصاعداً نجباء أهل العلم الأزهريين بالعلوم العصرية التي جدَّدها الخديو الأكرم بإنعامه عليها أوفر أموال مملكته ، لفازوا بدرجةِ الكمال ، وانتظموا في سلك الأقدمين من فُحولِ الرجال ؛ وربَّما يتعلّلون بالاحتياج إلى مساعدةِ الحكومة ، والحالُ أنَّ الحكومةَ إنما تساعدُ من يلوحُ عليه علاماتُ الرغبة والغَيْرة والاجتهاد ، وهي قد ساعدتْ بتسهيلِ الوسائطِ والوسائل ، ليغتنمَ فرصةَ ذلك كلُّ طالبِ وسائل ؛ وكل من سار على الدَّرْب وَصَل ، وإنما تكونُ المكافأة على تمام العَمَل . . .[1] .

٣ ــ وصفه لبعض مظاهر المجتمع الفرنسي

كانت الحياة في مصر في أوائل القرن التاسع عشر مختلفة جد الاختلاف عن الحياة في أوربا ، وقد لفت هذا الاختلاف أنظار رفاعة الفتى الأزهري عند وصوله إلى فرنسا وفي أثناء مقامه بباريس ، فقدم رفاعة في رحلته صوراً طريفة من المجتمع الباريسي كما رآه ، ونحن ننقل هنا بعض هذه الصور الوصفية .

ا ــ نظام الأكل عند الفرنسيين

... وعادةُ الفرنساوية الأكلُ في طباق كالطِّباقِ العجميَّة أو الصِّينيَّة ، لا في آنية النُّحاس أبداً ، ويضعون على السُّفرة دائماً قُدّامَ كلِّ إنسانٍ شوكةً وسكِّيناً ومِلْعقة ، والشَّوكةُ والمِلْعقةَ من الفضَّة .

---

(١) « مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية » ص ٣٧٢ ــ ٣٧٦ .

ويرَوْن أنّ من النظافةِ والشّلبنة [١] أن لا يمسّ الانسانُ الشّيءَ بيدهِ ، وكلُّ إنسانٍ له طبقٌ قدّامَه ، بل وكلُّ طعامٍ له طبَق ، وقُدام الإنسان قدَحٌ يصبّ فيها ما يشربُه من قزازة عظيمةٍ موضوعةٍ على السُّفرة ، ثم يشربُ فلا يتعدّى أحدٌ على قدَح الآخر ، فأوانى الشُّرب دائماً من البلور والزّجاج ؛ وعلى السفرةِ عدّةُ أوانى صغيرة من الزّجاج ، أحدُها فيه ملح ، والآخر فيه فلفل ، وفى الثالث خردل ، إلى آخره؛ وبالجملة فآدابُ سفرتهم وترتيبها عظيمٌ جدًّا :

وابتداء المائدة عندهم الشُّوربة . واختتامُها الحلويات والفواكه ، والغالبُ فى الشراب عندهم النَّبيذ على الأكل بدل الماء ويكثرُ فى باريس شرب الشّاى عَقِبَ الطّعام ، لأنهم يقولون إنّه هاضِم للطعام ، ومنهم منْ يشرَبُ القهوة مع السكّر ، وفى عوائد أغلب النّاس أن يفتتوا الخبزَ فى القهوةِ المخلوطةِ باللبن ويتعاطونَها فى الصّباح .

ومع كثرة تفنّنهم فى الأطعمةِ والفطورات ونحوها فطعامهم على الإطلاق عديم اللّذة ، ولا حلاوةَ صادقة فى فواكه هذه المدينة إلا فى الخوخ .

وأمّا خمّاراتُها فإنها لا تُحصَى ، فما من حارةٍ إلا وهى مشحونةٌ بهذه الخمّارات ولا يجتمعُ فيها إلاّ أراذلُ الناس وحرافيشهمْ مع نسائهم ، ويُكثِرون الصّياح وهم خارجون منها بقولهم ما معناه : الشّراب ، الشراب ؛ ومع ذلك فلا يقعُ منهم فى سُكْرِهم أضرارٌ أصلاً ؛ وقد اتفق لى ذات يوم وأنا مارٌّ فى طريق باريس أن سكرانًا صاح قائلاً : « يا تركى ، يا تركى » ، وقبض ثيابى ، وكنت قريباً

(١) هذا اللفظ مشتق من الكلمة التركية : شلبى أو چلبى ومعناها نظيف أو أنيق .
(٢) هذا هو المصطلح العامى للكلمة العربية « زجاجة » .

من دكّان يباعُ فيه السُّكّر ونحوه ، فدخلتُ معه وأجلستُه على كرسى ، وقلتُ لرَبِّ الحانوت على سبيل المزاح :

— « هل تريدُ أن تعطينى بثمنِ هذا الرجل سكراً أو نُقْلاً ؟ »

فقال صاحبُ الحانوت :

— « ليس هنا مثل بلادكم يجوز التصرّف فى النوع الإنسانى »

فما كان جوابى له إلا أنّى قلت :

— « ان هذا الشّخص السّكران ليس فى هذا الحال من قبيل الآدميين »

وهذا كلّه والرّجُل جالسٌ على الكرسى ولا يشعرُ بشىء من ذلك ؛ ثم تركته بهذا المحل وذهبت ...[1]

ب — ملابس الفرنسيات

« وملابسُ النّساء ببلادِ الفرنسيس لطيفةٌ بها نوعٌ من الخلاعَة ، خصوصاً إذا تزيّنّ بأغلى ما عليهنّ ، ولكن ليس لهن كثير من الحلى ، فإن حليهنّ هو الحلق المذهّب فى آذانهنّ ، ونوعٌ من الأساور الذهب يلبسنه فى أيديهنّ خارجَ الأكمام ، وعقدٌ خفيفٌ فى أجيادِهنّ ؛ وأمّا الخلاخل فلا يعرفونها أبداً .

ولبسُهنّ فى العادة الأقمشة الرقيقةُ من الحرير أو الشّيت أو البفت الخفيف ، ولهنّ فى البرد شريطُ فروةٍ فيضعونه فى رقابهن و برخين طرفيه كالمأزر حتى يصل بطرفيه إلى قرب القدمين .

ومن عوائدهن أن يحتزفنَ بحزامٍ رفيعٍ فوق أثوابهنّ حتى يظهر الخصْرُ نحيفاً ، و يبرز الرِّدْف كثيفاً ، ومن خصال النساء أن يشبكن بالحزامِ قضيباً من صفيح

(١) « تخليص الإبريز إلى تلخيص باريز » ص ١٠٤ — ١٠٥ .

من البطنِ إلى آخرِ الصَّدر حتى يكونَ قوامهنَّ دائماً معتدلاً لا اعوجاجَ به .

ولهنَّ كثيرٌ من الحيَل، ومن خصالهنَّ التى لا يمكن للإنسان أن لا يستحسنَها منهنَّ عدمُ إرخائهنَّ الشُّعورَ كعادة نساء العرب ، فإن نساء الفرنسيس يجمعْنَ الشعور فى وسطِ رؤوسهنَّ و يضمْنَ فيه دائماً مشطاً ونحوه .

ومن عوائدهنَّ فى أيامِ الحرِّ كشفُ الأشياء الظاهريّة من البدن، فيكشفْنَ من الرأس الى ما فوق الثَّدْيِ حتى أنه يمكن أن يظهرَ ظهرُهن ، وفى ليالى الرقص يخلعْنَ عن أذرعتهنَّ ، و بالجملة فلا يُعَدُّ ذلك من الأمورِ المخلّة عند أهلِ هذه البلاد ، ولكن لا يمكن لهنَّ أبداً كشفُ شىء من الرِّجلين ، بل هنَّ دائماً لابساتٌ للجُرَابات الساترة للساقين ، خصوصاً فى الخروج إلى الطرق ، وفى الحقيقةِ سيقانهنَّ غير عظيمة أصلاً .

ومن المتداولِ عند الفرنساوية استعمالُ الشُّعور العارية لنحو الأقرع وردى الشَّعْر بل قد يستعملونها فى اللحى والشارب للتقليد ، وقد شاعتْ عندهم تلك العادةُ من زمن لويز الرابع عشر ملك فرنسا ، حيث أن هذا الملك كان يلبسُها ولا يخلعُها من رأسه أصلاً إلا عند النوم ، ولا زالت إلى الآن مستعملةً لكن للأقرع أو ردى الشعر، ومن الغريب أنها تستعمل الآن فى مصر بين نساء القاهرة [1] .

حـ ــ متنزهات باريس

. . . ومن متنزّهات باريس الحدائقُ العظيمةُ العامّة ، ففى باريس نحوُ أربعةِ بساتين كبرى ، يتماشَى فيها الخاصُّ والعامُّ ، فمنها حديقةٌ تسمَّى :

---

(١) « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » ص ١٠٦ — ١٠٧ .

« الشمبزليزه[١] » ، معناه بالعربية « رياض الجنة » ؛ وهى من أرقّ المتنزّهات وأنضرها ، وهى بستانٌ عظيم يبلغ أربعين أربانا ، والأربان هو قياسٌ يقرب من الفدان .

ومع أنّ طول طريقها نحو ألف قامة ، فإنها موضوعةٌ بحيثُ إنك إذا مددتَ نظرَك رأيتَ طرفَها الثانى قُدّامَ عينيك ، وفى هذه الروضة العظيمة دائماً شىء من الملاهى لا يمكن حصرُه ، وسائر أشجارِ هذا البستان متصافّة متوازية بعضها مع بعض ، رُتبت بحيث إنه يوجدُ مدخلٌ من كلّ الجهات ، فهو على سمت الخطوط المستقيمة من سائر الجهات ، وفى وسط كل جملة من الأشجار يوجد محل مربع .

وهذه الحديقة يتّصلُ أحدُ جوانبها بنهر السّين ، وبينها وبينه رصيف ، وبجانبها الآخر بيوتٌ بأطراف الخلا ، وفيها كثير من القهاوى والرسطراطورات[٢] — يعنى بيوت الأكل — ، وفيها سائرُ أنواعِ الطعام والشّراب .

وهى مجمعُ الأحباب والأكابر ، وبها كثيرٌ من المراسح للخيل ، ويدخل فيها الأكابرُ بالعربيّات المزيّنة ، وفيها عدّةُ آلاف من الكراسى بالأجرة ، يُجلس عليها فى زمنِ الربيع نهارًا ، وفى زمنِ الصيف ليلاً ، وأعظمُ اجتماعِ الناس فيها يوم الأحد ، فإنّه يومُ البطالة عند الفرنساوية ، وبالجملة فهذه الحديقةُ محلٌّ للمواسم وللأفراح العامة والزينات ، وبها تتماشى سائرُ النساء الجمالات[٣][٤] .

---

(١) هذا هو الرسم العربى للكلمة الفرنسية : Champs Elysés

(٢) هكذا رسم رفاعة الكلمة الفرنسية Restaurant بمعنى مطعم .

(٣) هذا تعبير عامى ، والصحيح أن تقول « جميلات » . إلا أن يكون قد أراد أن يصف بالمصدر من مثل قولهم : شاهد عدل وشهود عدول ، أو كقول حسان بن ثابت الأنصارى :

لعمر أبيك الخير يا شعث ما نبا علىّ لسانى فى الخطوب ولا يدى

فقد وصف كلمة « أبيك » بكلمة « الخير » وهى مصدر .

(٤) « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » ص ١١٣ — ١١٤ .

٢ ــ رفاعة الشاعر

١ ــ وطنياته

كان صوت رفاعة الطهطاوى أول صوت ارتفع فى تاريخنا الحديث للتحدث عن الوطن والوطنية ، والإشادة بأمجاد مصر فى عصورها القديمة والحديثة ، ودعوة المصريين إلى الاعتداد بتاريخهم وبحضارتهم ، وقد تناول هذه المعانى جميعاً فيما كتب ــ نثراً وشعراً ــ وفيما يلى هنا نماذج لوطنياته الشعرية .

قال رفاعة فى مطلع قصيدة من قصائد المديح :

المجد الأثيل

أبناءَ مصرَ نحنُ موطنُنا أصيلْ
حَسَبٌ عَريقٌ زانَهُ مَجْدٌ أثيلْ
وفَخارُنا فى الكونِ جَلَّ عن المثيلْ
لِرِحابِنا تُطْوَى المهامِهُ[٢] بالطِّلاحِ[٣]

نحنُ السَّراةُ[٤] وشأنُنا حُبُّ الوطَنْ
ولِشأنِنا السَّامِى تَزَاحَمَ مَنْ قَطَنْ
شانى[٥] حِمانا ليسَ من أَهْلِ الفِطَنْ

---

(١) طبعت هذه القصيدة وحدها فى بولاق سنة ١٢٧٢ هـ بعنوان « منظومة وطنية مصرية » .
(٢) المهمه : المفازة والبرية القفر ، والجمع مهامه .
(٣) الطلاح : الإبل الهزيلة ، والمعنى أن رحابنا مقصودة من أقصى الجهات يقدم إليها الإنسان فتهزل مطاياه بطول المسافة .
(٤) السراة : اسم جمع لسرى ، وهو الشريف ذو المروءة .
(٥) شانى : أى كاره أو مبغض .

فَهوَ الدَّعِيُّ[١]، وعِرْضُهُ شَرْعاً مُبَاحْ

وطَنٌ عزيزٌ لا يُهانُ ولا يُضامْ
وحِمًى تعَزَّزَ مَنْ على عَلْياهُ حَامْ
مجدٌ لهُ لا زالَ يخترقُ الغَمامْ
عَيْنُ السُّهَا[٢] لفَخارِه ذاتُ التِماحْ

يا أهلَ مصرٍ بِرُّ مصرٍ فَرْضُ عَيْنْ[٣]
فى البِرِّ نبذلُ عن رِضىً نَفْسًا وعَيْنْ
وإذا الرَّقيبُ دَنَا لَها بلحاظِ عَيْنْ
ما عِنْدَنا من فَقْدِها إلَّا الرِّمَاحْ

وهذه قصيدة وطنية أخرى تشبه أن تكون نشيداً وطنياً :

مصر نور الكون

يا صاحِ حُبُّ الوَطَنِ حِلْيَةُ كل فَطِنِ
محبَّةُ الأوطانِ من شُعَبِ الإيمانِ
فى أفْخَرِ الأدْيانِ آيَةُ كُلِّ مُؤْمِنِ

---

(١) الدعى : الدخيل فى القوم وليس منهم .
(٢) السها : كوكب ، والالتماح النظر .
(٣) العين هنا المال من ذهب وفضة .

يا صاحِ حبُّ الوطنِ حِلْيَةُ كلِّ فَطِنِ
مَساقِطُ الرُّءوسِ تَلَذُّ للنُّفوسِ
تُذْهِبُ كلَّ بُوسِ عَنَّا ، وكلّ حَزَنِ

يا صاحِ حُبُّ الوطَنِ حِلْيَةُ كلِّ فَطِنِ[1]
ومِصْرُ أبْهَى مَوْلِدٍ لَنا ، وأزهَى مُحْتِدِ
ومَرْبَعٍ ومَعْهَدِ للرُّوحِ أو لِلْبَدَنِ

شُدَّتْ بها العَزائمُ نِيطتْ بها التَمائمُ
لِطَبْعِنا تُلائمُ في السِّرِّ أو في العَلَنِ

مِصْرٌ لها أيادِي عُلْيا على البِلادِ
وفَخْرُها يُنادِي ما المَجدُ إلّا دَيْدَنِي[2]

الكونُ من مِصْرَ اقتَبَسْ نُورًا ، وما عَنْهُ احْتَبَسْ
وما فَخارُها التَبَسْ إلا على وغْدٍ دَنِي

فخرٌ قديمٌ يُؤثَرُ عن سادَةٍ ويُنْشَرُ
زُهورُ مَجْدٍ تُنْثَرُ منها العُقولُ تجْتَنِي

---

(١) من المفروض أن يتكرر هذا البيت بعد كل مقطوعة مكونة من بيتين ، وقد أثبتناه بين المقطوعات الثلاث الأولى ، ثم لم نجد فائدة من تكراره .
(٢) الديدن : الادأب والعادة .

دارُ نَعيمٍ زاهِيهْ ومَعْدِنُ الرُفاهِيهْ
آمِرَةٌ وناهِيهْ قِدْمًا لكلِّ المُدُنِ

تحْنُو على القَرِيبِ تحلُو لَدَى الغَرِيبِ
تَرْنُو إلى الرَّقِيبِ شَزراً بسَهْمِ الأعْيُنِ

قُوَّة مِصرَ القاهِرهْ على سِواها ظاهِره
و بالعمارِ زاهِرَه خُصَّتْ بذكرِ حَسَنِ

عُلومُها حَقائِقُ فهُومُها دقائقُ
رُمُوزُها رَقائقُ تحلو لأهْلِ الفِطَنِ

أمَا تَرَى الأهالِي تَرْقَى ذُرا المَعالِي
هم سادةٌ مَوالِي جَمالُ وجهِ الزَّمَنِ (١)

أبناؤُها رِجالُ لم يَثْنِهِمْ مَجالُ
ولا بِهِمْ أوْجالُ في ليلِ وقعٍ دَجِنِ (٢)

وجندُهم صِنْدِيدُ وقَلْبُهُ حَدِيدُ
وخصْمه طَرِيدُ بل مُدْرَجٌ في كَفَنِ

---

(١) موالى : جمع مولى وهو من الأضداد وهنا بمعنى السيد .
(٢) الأوجال : جمع وجل ، الخوف . والدجن : المظلم .

كلُّ فَتًى جليلِ يعشــقُ وادِى النِّيلِ
كمْ فِيــهِ من نَزِيلِ يقولُ : مِصْرُ وَطَنِى

وقال فى قصيدة وطنية ثالثة :

المربع السامى

ليسَ اللَّبيبُ ذو الفِطَنْ إلاَّ المحِبُّ للوطَنْ
ومَوضعٌ به قَطَنْ لَدَيْهِ أسْمَى موضِعِ (١)

فسقطُ الرَّأسِ أحَبّ من رأسِ مالٍ يُكْتَسَبْ
ومَنْ لحبِّــهِ انْتَسَبْ فهوَ الذكىُّ الألْمَعِى

أكْرِمْ بمصرَ من حِمَى عُلاهُ قد سامَى السَّما
مَرْبَعُهُ لقــد سَما فيــالَهُ من مَرْبَعِ

فمصرُ ، ما أجَلَّها الكلُّ يهْوَى وصْلَها
فإن رَنَتْ عَينٌ لها فقوُّها بالإصْــبَعِ

رَفيعَــةٌ شُؤُونُهــا مَنيعــةٌ حُصُونُها
بديعــةٌ فُنونُهــا كم شَيَّدتْ من بَلْقَعِ (٢)

---

(١) قطن : سكن .
(٢) البلقع : الأرض القفر .

ومن وطنيات رفاعة قصائد أو منظومات يشيد فيها بذكر الجيش المصرى وشجاعة جنوده وأبطاله ويتغنى بانتصاراته وأمجاده ، وقد آثرنا هنا بنموذجين لهذا النوع من القصائد :

الجيش المصرى ومفاخره

نَنظِّمُ جُنْدَنا نَظْمَا عَجِيباً يُعجزُ الفَهْمَا
بأُسْدٍ تُرعِبُ الخَصْمَا فَمَنْ يَقْوى يناضِلُنا

رجالٌ ما لَها عَدَدُ كمالُ نظامِها العُدَدُ
حُلاها الدِّرْعُ والزَّرَدُ سِنَانُ الرُّمحِ عامِلُها

وهَنْ خيُولِنا شَبَهُ كرائِمُ ما بها شُبَهُ(١)
إليها الكُلُّ مُنْتَبِهُ وهل تَخْفَى أصائلُنا

لَنا فى الجيشِ فُرْسانُ لهمْ عِنْدَ اللِّقا شَانُ
وفى الهَيْجاء عُنْوانُ تَهِيمُ بهِ صَواهِلُنا(٢)

مدافِعُنا القَضَا فيها وحُكْمُ الحَتْفِ فِيها(٣)
وأَهْوِنُها وجافِيهـا تَجُودُ به معامِلُنا

لَنا الرُّؤَساء أَبْطالُ رِجالٌ أينما جالُوا
بصَوْلةِ عَيْلمٍ صالوا يفوقُ الحدَّ صائِلُنا(٤)

---

(١) شبه فى الشطر الأول بمعنى النظير والمثيل . والشبه فى الشطر الثانى : جمع شبهة وهو ما يلتبس فيه الحق بالباطل والحلال بالحرام .
(٢) الهيجاء : الحرب . الصواهل : الخيول .
(٣) الحتف : الموت والهلاك .
(٤) العيلم : البحر والضبع الذكر .

لَنا فى المُدْن تَحْصِينٌ وتنظيمٌ وتحسينُ
وتأييدٌ وتمكينُ مَنيعاتٌ معاقِلُنا

وقال من قصيدة أخرى يخاطب جنود الجيش المصرى ويذكرهم بأمجادهم ، ويثير حماستهم :

يأيُّهـا الجُنُودُ والقادَةُ الأُسُـودُ
إن أُمَّكُمْ حَسُودُ يَـودُ هَامِى المدْمَعِ (١)

فكم لكُمْ حُرُوبُ بنصرِكُمْ تَؤُوبُ
لم تَثْنِكُمْ خُطوبُ ولا اقْتِحامُ مَعْمَعِ

وكم شَهِدْتُم من وَغَى وكم هزمْتُمْ مَنْ بَغَى
فمن تعدَّى وطغَى على حِماكُمْ ، يُصْرَعِ

٢ ــ شعره الوصفى

ا ــ وصف الوابور

قصائد رفاعة فى الوصف قليلة العدد ، وقد أحصيت منها اثنتين : الأولى وصف فيها أفراح الأنجال ، والثانية وصف فيها الوابور ، وقد أتينا هنا بالقصيدة الثانية كنموذج لهذا النوع من شعره .

العَقْلُ فى الوابورِ (٢) حَارْ تَبْغِى الجوابَ فلا يُجِيرْ
فإذا أردتَ الإخْتِبارْ عِلْمًا به ، فاسْأَلْ خَبِيرْ

---

(١) الهامى : المنسكب .

(٢) كانت مصر ثانى دولة فى العالم استعملت القاطرة البخارية والسكة الحديدية ــ بعد إنجلترا ــ ، وقد أطلق المصريون لفظ « وابور » على القاطرة البخارية ، واللفظة محرفة عن الكلمة الفرنسية (Vapeur) أو الإنجليزية (Vapour) بمعنى بخار .

فُلْكٌ بأَوْجِ اللجِّ دَارْ ... ومِنَ الحضيضِ له مُدِيرْ
يَجرِى على عَجَلٍ كِبارْ ... فى رَسْمِ شَكْلٍ مُسْتَدِيرْ
هُوَ من عَطَارِدَ[1] لا يَفارْ ... فكأنَّهُ الفلكُ الأَسِيرْ
قد أَوْرَثَ الشَّمْسَ اصْفِرارْ ... لمَّا عَلا منهُ الصَّفِيرْ
قَمَرٌ منازِلُهُ البُخارْ ... نَجْمُ السِّمَاكِ[2] له سَمِيرْ
فى كَفِّهِ الجوْزا[3] سِوَارْ ... بَهَرَ الثُّرَيَّا إذْ تُنِيرْ
والمُشْتَرِى[4] حازَ اليَسارْ ... فَغَدا بِزُهْرَتِهِ أَسِيرْ
مَلَكٌ له الوَحْىُ ائتمارْ ... أبدًا بأَجْنِحةٍ يَطِيرْ
وبراقُ أَسْرَى فى القِفارْ ... يَطْوِى الفيافِىَ إذْ يَسِيرْ
مَلِكٌ على الأَنْهارِ سَارْ ... وعلى البِحارِ لهُ سَرِيرْ
بالعزِّ أَكْسَبَها الصِّغارْ ... مع أنَّهُ جِرْمٌ[5] صَغِيرْ
قد نالُ من كِسْرَى اعْتِبارْ ... لبُخارِ عَنْبَرِهِ عَبِيرْ
خاقانِ هِنْدٍ خوفَ عارْ ... ما هالَهُ لَهَبُ السَّعِيرْ
بُرْكانُ نارٍ حيثُ ثارْ ... نوراً ، وصارَ لَهُ هَدِيرْ
أو سائحٌ يَهْوَى السَّفارْ ... لمصالحِ الدُّنْيا سَفِيرْ

---

(١) عطارد : نجم من السيارات وهو أقربها من الشمس .
(٢) السماك : أحد السماكين وهما كوكبان نيران ، يقال لأحدهما السماك الرامح ، لأن أمامه كوكباً صغيراً يقال له راية السماك ورمحه ، وللآخر السماك الأعزل لأنه ليس أمامه شىء .
(٣) الجوزا : مقصور الجوزاء وهى برج فى السماء .
(٤) المشترى : اسم كوكب . والزهرة : بضم الزاى وفتح الهاء اسم كوكب أيضاً وقد أسكن الشاعر الهاء لضرورة الوزن .
(٥) الجرم : أحد الأجرام الفلكية أى النجوم .

أو عاشقٌ سُلِبَ القَرارْ أو يحسدُ الطَّرْفَ القَرِيرْ(١)
فى الحبِّ قد خَلَعَ العِذارْ ودموعُ مُقْلَتِهِ غَدِيرْ(٢)
صَبٌّ ، وفى الأحشاء نارْ شَوْقًا إلى القَمَرِ المنيرْ
أو شاطِرٌ طلَبَ الفِرارْ للأمْنِ من أمرٍ خَطِيرْ
أو بازُ صَيْدٍ قد أغَارْ مغرى على الظَّبْيِ الغَرِيرْ
أو ظَبْيُ قاعٍ ذو نِفارْ يعدُو إذا عَمَّ النَّفِيرْ
البرقُ سُرْعَتَهُ استَعارْ والوُرْقُ منه تَسْتَعِيرْ(٣)
ويَرَى الرِّياحَ بالاحْتِقارْ فهبوبُها مَعَهُ حَقِيرْ
طَرْفٌ تُسَايِرُهُ الدَّرارْ ليلاً ، فتخجلُ فى المسيرْ(٤)
للَّيْلِ يَطْوِى والنَّهـارْ وبه ازْدَهَى الزَّمَنُ الأخِيرْ
ما الفعلُ يُنْسَبُ لِلْبُخَارْ بل صُنْعُ خَلَّاقٍ قَدِيرْ

---

(١) الطرف القرير : العين الهانئة .
(٢) العذار : الحياء . يقال : خلع فلان عذاره وهو خليع العذار أى اتبع هواه وانهمك فى الغى وصار يقول ويفعل وما يبالى بشىء كالدابة بلا رسن .
(٣) الورق : جمع ورقاء مؤنث الأورق وهى الحمامة أو التى يضرب لونها إلى الخضرة .
(٤) الدرار : الدرارى أى النجوم .

٣ ــ أشعار تربوية

فى تأديب الأطفال

قدّم رفاعة لهذه القصيدة بقوله : «وقد كنت نظمت فى كتاب تعريب الأمثال فى تأديب الأطفال منظومة لطيفة تحسن بمنوال التعريب نسجها ، فيحسن هنا بمناسبة المقام إدراجها» ، وكتاب «تعريب الأمثال» الذى يشير إليه رفاعة ترجمه عن الفرنسية إلى العربية واحد من تلاميذ رفاعة وخريجى مدرسة الألسن ، واسمه عبد اللطيف أفندى ، ويقع هذا الكتاب فى ١٣٢ صفحة وقد طبع فى مطبعة بولاق سنة ١٢٦٣ هـ[1] ، ويلاحظ أنه يكرر فى هذه القصيدة دعوته الجريئة بضرورة تعليم البنت .

فى برِّ والديكَ بالِغْ تَغْنَمِ ... لا سيَّما فى العيدِ أو فى الموْسِمِ
وإنْ تَرُمْ سُرورَ أُمٍّ أو أَبِ ... يوماً ، فكَسْبُ العِلْمِ خيرُ مَكْسَبِ
مَنْ رامَ عندَ النَّاسِ طُرًّا أنْ يُحَبْ ... فليلتزِمْ حُسْنَ السُّلوكِ والأَدَبْ
وأنْ يكونَ طيِّبَ السَّريرَه ... مهذَّبَ الأخلاقِ زاكى السِّيَرَه
مَنْ رَامَ بين العالَمِ ارْتِفاعَه ... فليلزِمِ العِفَّة والقَناعه
هل ذَلَّ عندَ النَّاسِ عبدٌ يَقْنعُ ... أو عَزَّ سَيِّدٌ لديهمْ يَطْمَعُ
إنْ رُمْتَ أن تشوِّقَ الأولادَا ... وأن تَرَى من نَجْلِكَ اجْتِهادا
فَعِدْهُ بالإتْحافِ يومَ العِيدِ ... وقدِّمِ الوَعْد على الوَعِيدِ[2]
يُعاقَبُ الجانى بما جَناهُ ... وذاكَ فى دُنْياهُ أو عُقْباهُ
والظُّلْمُ لا يترُكهُ المولى سُدَى ... مآلُ كلِّ ظالمٍ إلى الرَّدَى

---

(١) انظر : (جمال الدين الشيال : «تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على» القاهرة ١٩٥١ ، ص ٢٥ من الملاحق .)

(٢) أتحفه الشىء وبالشىء : أهداه إليه أو أعطاه إياه . الوعيد : التهديد .

مَنْ رامَ أن يكتسبَ اللّطافَه ... عليـــهِ طولَ الدّهْرِ بالنّظافَه
فإنّها من شُـــعَبِ الإيمانِ ... تُطْلَبُ فى الثّيابِ والأبدانِ
وشَرُّ أوصافِ الفَتَى هو الغضبْ ... يُفضَى إلى ارْتِكابِ مالا يُرْتَكبْ
فيالَهُ من خصـــلةٍ ذَميمه ... فى تَرْكِها مصْلَحةٌ جسيمَه
وقوّةُ الرأسِ معَ العِنـــادِ ... من أقبحِ الخصالِ فى الأولادِ
والامْتِثالُ صِفةٌ جليـــلَه ... للودِّ ليس مثلَهـــا وسيلَه
ممّا يُعَدُّ من صِـــفاتِ الذمِّ ... كَتْمُ الصّغيرِ عن أبٍ أو أمِّ
سِرًّا حقيراً أو جليلاً ، بل يجبْ ... إبداؤه ، وعنهما لا يحتجب
يَطّلِعُ المولى عَلَى ما تعملُهْ ... بعلمه ، لـكنّه قد يُمهِلُهْ
فَفُزْ بفعلِ صالحِ الأعمالِ ... تَحُزْ صلاحَ الحالِ والمآلِ
مَنْ يَعْصِ والدَيْهِ ضَـــلّ ونَدِمْ ... وساءَ حالُه ، وللرُّشْدِ عـــدِمْ
وضاعَ سعيُه وخابَ أمَلُه ... مالم يَتُبْ ، فلا يضيعُ عملُهْ
وعفّةُ الشّريفِ عنـــد الفقرِ ... وصَـــبْرُهُ لعُسْرِهِ مع شكْرِ
خيرُ فضـــيلةٍ عليها يُحْمَدُ ... يعقبها اليُسْرُ ويبقى السُّودَدُ[1]
يمتازُ عن أقرانِهِ فى المكتبِ ... تشـــملُهُ بَرَكَةُ المؤدِّبِ
فَضْلُ البناتِ الشُّغْلُ والتّطريزُ ... ومَنْ حَوَتْ علْماً به تفوزُ
فى ســـائرِ الأحْوالِ الاحتِشامُ ... من جِنْسِهنّ والحيا يُرامُ
الرِّفْقُ بالفقـــيرِ والضّعيفِ ... من حُسْنِ أخلاقِ الفَتَى الشّريفِ
وخوفُ ربِّ العَرْشِ والمراقبَه ... أمنٌ من الشّرِّ وسوءِ العاقبَه

(١) السؤدد : القدر الرفيع وكرم المنصب .

مَنْ رامَ نَظْمِه بِسِلكِ السَّعَدَا فليُبْعِدِ النَّاسَ ليبقى مُسْعَدا
يُحِبُّ مِثْـــلَ مالِه لغيرِهِ يُعْطى أخاهُ جانباً من خَـيْرِهِ
يَحْسُنُ حِفْظَ اللوْحِ للصَّغيرِ على مرارٍ ، بل وللكبيرِ
يَرْسُخُ فى الذِّهْن وليس يُمْحَى جَرِّبْهُ بالتَّقسيمِ ، واقْبَلْ نُصْحا
الكِبْرُ ناشئٌ عن الحماقَه وما لعاقلٍ عليـــهِ طاقَه

٤ ــ الشعر الغنائى

بعد تولى عباس الأول حكم مصر أمر بإغلاق معظم المدارس التى أنشأها جده محمد على ، وفى مقدمتها مدرسة الألسن ، وأبعد ناظرها رفاعة الطهطاوى إلى السودان .

ولبث رفاعة فى الخرطوم نحو أربع سنوات قاسى فى خلالها الأمرين ، ولم يَنِ لحظة عن السعى للعودة إلى مصر ، وقد أورد فى كتابه « مناهج الألباب » قصيدة أرسلها إلى حسن باشا كتخدا مصر يشكو فيها مما يقاسيه ويستعين به لمساعدته للعودة إلى الوطن قال :

شكوى

ألا فَادْعُ الذى تَرْجُو ونادِ يُجِبْكَ ، وإن تكنْ فى أىِّ نادِ
فَمَنْ غَرَسَ الرّجا فى قلْبِ حُرٍّ أصاب جَنَى النجا غِبَّ الحصَادِ[1]
ومن حُسْنِ الخلائقِ سَلْهُ صُنْعاً جَميلاً ، فَهُوَ أَوفَى بالودادِ
بَنُو الآدابِ إخوانٌ جميعاً وأخدانٌ بمختلفِ البــلادِ[2]
وآدابُ الفَتَى تُعْلِيــهِ يوماً إلى الأنْجادِ من بَعْدِ الوِهادِ[3]

---

(١) غب الحصاد : بعد الحصاد .

(٢) أخدان : جمع خدن ، الحبيب والصاحب .

(٣) الأنجاد : جمع نجد ، المكان المرتفع . والوهاد جمع وهدة ، الأرض المنخفضة والهوة فى الأرض .

وآدابي تُسامي بي الدراري ... على شَعَفٍ ، وتُبلغني مُرادي
ومالي لا أتيهُ بها دلالاً ... وقد دلَّتْ على نَهْجِ الرَّشادِ
إلى سُبُلِ الفخارِ تقودُ حَزْمي ... وفي مَيْدانِهِ عزْمُ انقيادي
عُصاميٌّ طَريفُ المجْدِ سَعْياً ... عِظاميٌّ شريفٌ بالتِّلادِ[1]
سِوَى نَسَبِ العُلومِ لَيَ انتسابٌ ... إلى خيرِ الحواضرِ والبَوادي
حُسَيْنِيُّ السُّلالَةِ ، قاسميٌّ ... بطهطا مَعْشَري ، وبها مهادي
لسانُ العُرْبِ ينسبُ لي نِجاراً ... ويُدْنيني إلى قُسِّ الأيادي[2]
وحَسْبي أنَّني أبرزتُ كُتْباً ... تُبيدُ كتائباً يومَ الطِّرادِ
فمنها مَنْبَعُ العِرْفانِ يَجْري ... وكم طِرْسٍ تحبَّرَ بالمِدادِ
على عَدَدِ التَّواتُرِ مُعْرَباتي ... تفي بفنونِ سلْمٍ أو جهادِ
وملطبرونُ يَشْهَدُ وهو عَدْلٌ ... ومُنْتِسْكو يُقِرُّ بلا تمادي
ومُنْتَرِفُو قَراحِ فُراتِ دَرْسي ... قد اقْتَرَحُواسقايَةَ كلِّ صادي[3]
ولاحَ لسانُ باريسٍ كشمْسٍ ... بقاهرةِ المعزِّ على عِمادي
ومحيي مصرَ أحْيا كانَ قَدْري ... وكافأني على قَدْرِ اجتهادي
سأشكرُ فضلَهُ ما دُمْتُ حيًّا ... وماشُكْري لدى تلك الأيادي[4]

---

(١) العصامي : نسبة إلى عصام حاجب النعمان وهو من شرف بنفسه لا بآبائه ومنه المثل : «كن عصامياً لا عظامياً» أي أشرف بنفسك كعصام لا بآبائك الذين صاروا عظاماً . والطريف : المجد المكتسب . والتلاد : المجد الموروث .

(٢) النجار : الأصل والأرومة . قس الإيادي : هو قس بن ساعدة الإيادي خطيب العرب وأسقف نجران يضرب به المثل بالفصاحة والبلاغة .

(٣) القراح : الماء الخالص . الفرات : الماء العذب جداً . الصادي : الظمآن .

(٤) الأيادي : النعم .

رعى الحنّانُ عَهْدَ زَمانِ مِصرٍ ... وأمْطَرَ رَبْعَها صَوْبَ العِهادِ[1]

رحلتُ بصفقةِ المغبونِ عنها ... وفَضْلِي فى سِواها فى المزادِ

وما السُّودان قطُّ مقامُ مِثْلِي ... ولا سَلَمَايَ فيهِ ولا سُعادِى

بها ريحُ السَّمومِ يُشَمُّ منهُ ... زَفيرُ لَظًى ، فلا يُطْفيه وادِى

عواصِفُها صباحاً أو مساءً ... دواماً فى اضطّرابٍ واضّطهادِ

وحَسْبِي فَتْكُها بنصيفِ صَحْبِي ... كَأَنَّ وَظيفَتِى لبْسُ الحِدادِ

وقد فارقتُ أطفالاً صغاراً ... بطهطا ، دون عودِى واعتيادِى

أفكِّرُ فيهمُ سِرًّا وجَهْراً ... ولاَ سَمَرِى يطيبُ ولا رُقَادِى

وعادَتْ بهْجَتِى بالنَّأْيِ عنهُمْ ... بلوعَةِ مُهْجَةٍ ذاتِ اتّقادِ

أريد وصالَهم ، والدَّهْرُ يأبى ... مُواصَلَتِى ، ويطمعُ فى عِنادِى

وطالت مدَّةُ التَّغريبِ عنهُمْ ... ولا غُنْمٌ لدىَّ سِوَى الكَسادِ

وما خِلْتُ العزيزَ يريدُ ذُلِّى ... ولا يُصْغِى لأخصامِ لِدادِ[2]

لدَيْهِ سَعَوْا بألْسِنَةٍ حِدادٍ ... فكيفَ صغَى لألْسِنَةٍ حِدادِ

مهازِيلُ الفضائلِ خادَعُونى ... وهل فى حَرْبِهِمْ يكبُو جَوادى[3]

وزخرفُ قولِهِمْ إذ موَّهُوهُ ... على تَزييفِهِ نادَى المُنادِى

فَهَلْ من صَيْرَفِى المَعْنى بَصيرٍ ... صحيح الإنْتِقاءِ والانْتِقادِ ؟

قِياسُ مَدارِسى قالُوا عَقيمٌ ... بمصرَ ، فما النتيجَةُ فى بِعادِى ؟

---

(١) الحنان : ذو الرحمة وهو أحد الأسماء الحسنى . صوب العهاد : المطر .

(٢) اللداد : جمع لدود ، الخصم الشديد الخصومة .

(٣) يكبو : يعثر .

ثلاثُ سِنينَ بالخرطُومِ مَرَّتْ بدونِ مَدارِسٍ طبْقِ المُرادِ
وغايَةُ مَطْلَبِي عَوْدِي لأهْلِي ولو من دونِ راحِلَةٍ وَزادِ[1]
وكم بُشِّرتُ أنَّ عَزيزَ مِصْرٍ تَفَوَّهَ بالفكاكِ ، ولم يُفادِ
وحاشَا أن أقولَ مَقالَ غَيرِي وذٰلِكَ ضِدُّ سِرِّي واعْتِقادِي
(لقد أسْمَعْتَ لو ناديتَ حَيًّا ولٰكن لاحَياةَ لمن تُنادِي)

---

(١) الراحلة : المطية .